المدخل الثاني:
الاتجاهات الجديدة لكتابة تاريخ فلسطين القديم

أسمهان شريح

" إن الصيغة العلمية!. للأركيولوجيا الفلسطينية أضعفتها المفاهيم الدينية المسبقة للباحثين الذين حفروا! في الأرض المقدسة، حقًا أن بعض الأركيولوجيين قدموا إلى فلسطين بدافع اهتمامهم بالكتاب المقدس: وإن بعضهم تلقى تدريبًا سابقًا باعتبارهم باحثين توراتيين ".

البرو فيسور "و. ألبرايت"

" إن على كل من يلج بوابة كنعان، أن يتسلح بالعلم والصبر، وأن يخوض معركة " فك ارتباط " جد قاسية، من أجل تحرير هذا التاريخ العربي، من كل ما ألصق به عمداً، وجهلاً من كل المخلوقات الطفيلية، ثم ترك مرميا خلف البوابات المهجورة الرطبة ".

" أحمد داود "

" إن التناقضات الواضحة، التي كشف عنها التنقيب الأثري في أريحا وغيرها من المواقع، التي تحدث عنها سفر يشوع، تدل على أننا نسير في طريق مسدود؛ في محاولة للعثور على شواهد اثرية لاثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية ".

" جيمس بريتشارد "

" أخذ هذا الكتاب (تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني) صيغته الحالية من محاولة تقديم تاريخ لفلسطين، إلى أستكشاف حجم ممانعة مشروع كهذا من خلال التأثيرات السياسية والاجتماعية والدينية ."

" كيث وايتلام "

مقدمة:

ظهر في الربع الأخير من القرن الماضي، وتحديداً في الثمانينيات منه، منحى جديد، أو تجديدي في الدراسات الكتابية (أي تلك التي تتناول الكتاب المقدس، وبشكل خاص الجزء الأول منه؛ وهو التوراة). وذلك بسبب أن التنقيبات الأثرية في فلسطين، لم تؤد إلى العثور على أي أثر لبني إسرائيل فيها؛ كما أن التنقيبات التي جرت شرقى فلسطين بعيد احتلالها عام 1967 ، أسفرت عن نتائج تتناقض مع الفهم التقليدي لبعض المقاطع التوراتية. ما دفع بجماعة من العلماء الكتابيين المرموقين والجديين - حسب تعبير د. زياد منى - مثل فيليب دفس؛ وكيث وايتلام؛ ولستر غرب؛ وتوماس طمسن؛ إلى المطالبة بإعادة النظر في التاريخ، وهو ما قاموا به ولا يزالون بالفعل. وهؤلاء يقولون بأن التاريخ ملفق... ولم توجد مملكة موحدة على سبيل المثال. وقد وجدوا تأييدا لذلك من عالمة هولندية متخصصة بآثار مدينة القدس اسمها مارغريت شتاينر [1].

أما أطروحة د. كمال الصليبي، التي تناولها في كتابه الشهير " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، فقد أثارت جدلاً واسعاً وتبنى، أو

بصورة أدق قارب، العديد من الكتاب والدارسين في المنطقة، وفي الغرب، هذه الأطروحة، التي ستتناولها هذه الدراسة، مستعرضين هذه الأطروحة بشكل موجز ومن ثم تداعياتها، ردود الفعل عليها سواء منها المؤيدة أو المعارضة، وبالتالي الوصول إلى استنتاجات عامة. وتأتي أهمية هذه الدراسة، نظرا إلى أن " الإسرائيليين "؛ ورغم بحثهم الدؤوب عن الآثار في فلسطين؛ لم يتمكنوا حتى اللحظة من إيجاد أي أثر يدل على تاريخ لهم في فلسطين، وذلك باعتراف أكاديمييهم؛ وعلماء التاريخ لديهم.

أطروحة كمال الصليبي:

الدكتور كمال الصليبي؛ مؤلف كتاب " التوراة جاءت من جزيرة العرب "؛ هو أستاذ في قسم التاريخ والآثار في الجامعة الأمريكية (بيروت). وتتلخص أطروحة هذا الكتاب؛ بأن وقائع تاريخ بني إسرائيل كما ورددته في التوراة؛ كان ميدانها أرض شبه الجزيرة العربية؛ وتحديداً في منطقة بطول يصل إلى حوالي ٦٠٠ كيلو متر، وبعرض يبلغ حوالي 200 كيلومتر، تشمل ما هو اليوم عسير، و الجزء الجنوبي من الحجاز.

و يذكر الكاتب أدن الآمر عبارة عن اكتشافه تم بالصدفة؛ عندها كان يبحث عن أسماء، الأمكنة ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، ففوجيء بوجود أرض التوراة كلها هناك. وكان أول ما تنبه اليه الكاتب - كما يذكر - أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة، تشبه أسماء الآمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبين للكاتب أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنه، أو جلبها؛ ما زال موجودًا

فيها. كما تبين للكاتب، أيضًا، أن الخريطة المستخلصة من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء لجهة أسماء الأمكنة، أو لجهة القرائن، أو الإحداثيات؛ تتطابق تمامًا مع خريطة هذه الأرض. وهذه - كما يعتبرها الكاتب - حقيقة أولية، نظرًا لأنه لم يثبت بعد إطلاقاً، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع خريطة الأرض بين " النيل والفرات "، التي اعتبرت حتى اليوم؛ أنها بلاد التوراة [٢]. وهذا ما يؤكده العالم الألماني وينكلر حيت يقول: أن أرض كوش تقابل مصري، التي هي في القسم الشمالي لي من شبه جزيرة العرب. وعلى هذا، فان ماذكر عن كوش ومصر في التوراة، لا يقصد به الحبشة ووادي النيل، بل يقصد به مكانان في شبه جزيرة العرب [٣].

ويتابع د. الصليبي: " أكثر من ذلك، فاني لم أستطع العثور على مثل هذا التجمع لأسماء الامكنة التوراتية، وفي صيغتها الأصلية عادة، في أي جزء آخر من الشرق الأدنى. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار تاريخ بني إسرئيل؛ كان هناك في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر " [٤].

ويرجع د. الصليبي الصعوبات، التي واجهها ومازال يواجهها دارسو التاريخ التوراتي، وأدت بالكثير منهم إلى التشكيك في صحة ذلك التاريخ، سببها قبولهم بالفكرة التقليدية القاتلة بأن جذور تاريخ بني إسرائيل تعود إلى العراق ومصر، وآن بؤرته كانت في فلسطين.

ووفقا لهذه الأطروحة؛ فان أرض كنعان التي تمكن بنو إسرائيل من

إقامة كيان لهم فيها؛ ليست فلسطين، وإنما المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال ألمع، وحتى منطقة جيزان في الجنوب. كما أن أرض الفلستيين، ليست هي الساحل الفلسطيني، وإنما ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال إلى جوار جيزان الجنوب. وأن هردن ليست نهر الأردن؛ وإنما هي لفظة تعني " جرف "، أو " قمة "، أو " مرتفع ". وقد استعملت للإشارة إلى مثل هذه المظاهر الطبوغرافية في عسير، وجنوبي الحجاز. ونجد في عسير وليس في مصر والعراق؛ نهري مصرايم وفرات، الأول في وادي ليه؛ والآخر هو وادي أضم. أما مصرايم فهي قرية المصرمة أو المصرامة بين أبها وخميس مشيط. ويرى المؤلف أن كتابات المنطقتين اللتين يطلق عليها اليوم العراق ومصر، وممالك الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد، التي تناولت بيئة تاريخ بني إسرائيل تشير إلى غربي شبه الجزيرة العربية(٥).

يشرح د. الصليبي كيف سادت وترسخت فكرة أن فلسطين هي أرض التوراة، مبيناً أن هذا لا ينفي وجود اليهود خارج شبه جزيرة العرب، سواء في فلسطين أو غيرها من البلدان العربية في أيام التوراة (أيام التوراة بدأت بعد 700 سنة من وفاة ألنبي موسى، زمن السبي البابلي). وقد بدأ الوجود اليهودي في فلسطين منذ زمن داود وسليمان (القرن العاشر قبل الميلاد). وكان الدافع تجارياً في البداية، ثم اتخذ انتقال اليهود إلى فلسطين شكل هجرات واسعة؛ نتيجة للحروب التي نشبت بين مملكتي: إسرائيل ويهوذا إثر انفصالهما بعد وفاة سليمان، وكما يحدث

عادة مع المهاجرين من مواطنهم، أخذ اليهود بإطلاق تسميات مواقعهم في غرب شبه الجزيرة العربية، على مواقعهم الجديدة في فلسطين. وبذلك فإننا نجد منذ ذلك الحين (القرن العاشر قبل الميلاد)؛ أن أسماء أماكن واردة في التوراة؛ قد وجدت مثيلاتها في فلسطين مثل: يهودا؛ يروشليم؛ بيت لحم؛ حبرون؛ شمرون؛ جرزيم؛ عيبال؛ كرمل؛ جليل وهيردن.

ويؤكد د. الصليبي أن اليهود، لم يكونوا أول من استوطن فلسطين؛ قادماً من غرب شبه الجزيرة العربية، بل هناك الفلستيون أيضا، الذين وصلوا فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية قبل اليهود، فصارت المنطقة تعرف باسمهم، وهناك، أيضا، الكنعانيين، الذين وصلوا قبلهم، وأعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن) على امتداد الساحل الشمالي شمال فلسطين. كذلك أعطى كل من الفلستيين، والكنعانيين أسماء يعرفونها في عسير لمواقع في بلاد الشام بما فيها فلسطين. لذلك وجدت أسماء فلسطينة مثل غزة؛ وأشكلون؛ وبيت دجن منذ ما قبل بني إسرائيل. وأسماء كنعانية مثل صور، صيدون، جبيل، أرواد ولبنان منذ وقت مبكر.

ويتابع د. الصليبي، فيخبرنا أنه باحتلال بنوخذ نصر البابلي ليروشليم سنة 586 ق. م: تحطم كيان بني إسرائيل السياسي في أرض عسير، وبذلك تركز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين، وبمرور وقت غير طويل، كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية، قد دخلت في غياهب النسيان. وساهم في ذلك موت اللغة العبرية مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وشيوع اللغة الأرامية كلغة رسمية زمن الإمبراطورية الأخمينية.

وبموت اللغة العبرية انقطعت صلة يهود فلسطين بكتبهم المقدسة، وبيهود غربي شبه الجزيرة العربية، الذين تشتتوا بين الكيانات المحلية الجديدة، وأهمها دولة معين، التي قامت في منطقة مملكة بني إسرائيل السابقة نفسها. في حين تمكن يهود فلسطين من إقامة مملكة لهم سميت بمملكة الحشمونيين سنة ١٦٧ ق. م، مستفيدين من الصرع بين البطالمة (حكام مصر)، والسلوقيين (حكام سوريا الكبرى). واعتبر الحشمونيون أنفسهم الورثة الشرعيين لإسرائيل القديمة؛ كما تم اعتبار فلسطين الموطن الأصلي لشعب بني اسرائيل البائد، وتوراته العبرية.

يستند الصليبي لاثبات اطروحته إلى ركيزتين؛ الأولى: هي أن النص العبري التوراتي يمثل لغة ميتة، وبالتالي، فعند التعامل معه، يصبح من الضروري تعريته من جميع حركاته. والركيزة الثانية أن النقيب الأثري في فلسطين، منذ أكثر من مائة عام؛ لم يستطع حتى اليوم؛ تقديم أي دليل على ارتباط التوراة بفلسطين [٦].

هذا باختصار فحوى اطروحة د. كمال الصليبي، التي أثارت جدلاً واسعًا في الأوساط السياسية والأكاديمية. ومن تداعيات هذه الأطروحة؛ استناد قلة من العاملين في مجال البحث التاريخي اليها في ابحاثهم نذكر منهم؛ الدكتور احمد داود، والدكتور زياد منى.

تداعيات أطروحة كمال الصليبي:

لعل أولى وأهم تداعيات اطروحة الصليبي أن اورشليم التوراتية؛ تقع في المنطقة من شبه الجزيرة العربية التي جرت فيها احداث التوراة؛ أي الموطن الأول لبني إسرائيل، ومن ثم اليهود. وعلى هذا فأن هذه المنطقة

أيضا هي مهد المسيحية الآو لى؛ الأمر الذي بينه الصليبي في كتابه " البحث عن يسوع ". وفي العرض الذي قدمه د. زياد منى لهذا الكتاب؛ في العدد الأخير (حزيران / يونيو ١٩٩٥) من مجلة " الناقد "؛ اعتبر د. منى موضوعة هذا الكتاب " استئناف خلاق ومبدع " للفتح العلمي، الذي بدأه كمال الصليبي في مؤلفه الأول - المشار إليه أعلاه - الا أنه - حسب زياد منى - " يسير خطوة إضافية في المسيرة العلمية نفسها؛ ليوضح، بالاضافة إلى العديد من الأمور المهمة؛ الاسباب الحقيقية لمحاربة أهل الاختصاص الأوربيين للمسألة، وفرارهم من حوار علمي هادئ حولها. والمهم في هذا العمل أنه مثل سابقه، يستخدم النصوص الآصلية، وليس المترجة. وهذا شرط أساسي لنجاح أي عمل؛ يستحق أن يدعي أي قدر من الجدية. ويعتبر الأستاذ زياد منى أن هذا العمل يكتسب أهمية استثنائية من ناحية أنه يبحث في التاريخ وفي الجغرافية المرتبطة بيسوع، مستخدمًا المنهجية العلمية المرتكزة على أسس البحث اللغوي، والنقد النصي، والجغرافية. والأمر المهم الآخر في رأي الدكتور منى أن الكتاب الجديد، وعلى عكس الإتجاه التقليدي في " علم نقد العهد القديم " يتجنب البحث في الجذور الروحية للمسيحية، وإنما في تاريخيتها، يصل إلى تناتج قد تكون مذهلة للبعض، لكنها منسجمة ومنطقية تمامأ. والهدف هو الإجابة عن الأسئلة: من كان يسوع؟ ومن آين جاء؟ وماذا كان مراده؟ لماذا صار له أتباع؟ وما هي هويتهم؟ لماذا قتل. لكن السؤال الأهم لماذا لا تنقل الأسفار أي معلومات تفصيلية عن حياته؟ (٧).

استند د. أحمد داود إلى اطروحة كمال الصليبي، وتوصل نتيجة بحثه

المطول في نصوص العهد القديم والنصوص الآخرى التي تبحث في الفترة التاريخية نفسها، وذلك باعتماده منهجية تتلخص بدراسة النصوص التاريخية دراسة تاريخية؛ وجغرافية؛ ولغوية؛ وسكانية؛ ومنطقية؛ مستعينًا بجميع العلوم المساعدة الأخرى، فتوصل إلى الاستنتاجات التالية، التي تضمنها كتابه " العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود ":

١ - أن " السامية " بدعة يهودية حديثة، و " الساميون " فرع من فروع العروبة. وقد ولدت هذه التسمية لأول مرة على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي " شلو تزر " في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لأن سام هو ابن نوح، وهو عربي من جوف شبه الجزيرة العربية، ولما كان من غير الجائز، أو المنطقي نسبة الآباء إلى الأحفاد، فان سام بن نوح عربي؛ نسبة إلى أبيه [٨].

٢ - أن " العبرانية " هذه التسمية التوراتية، ليست ظاهرة نسبية أو شعبوية ن أو لغوية أو قبلية، انها كانت تطلق على كل من يعبر من جانب إلى الجانب الآخر من الرعاة العرب في منطقة جد ضيقة في أعالي وادي الثرات شرق غامد في شبه جزيرة العرب. وبالتالي، فان ما يسمى اللغة العبرية ما هو الا اختراع صهيوني، حيث كلفت الحركة الصهيونية " المدعو اليعازر بن يهوه باختراع ذلك الشيء الذي دعته بـ " اللغة العبرية " من العربية القديمة ليكون لغة رسمية لليهود الذين سوف يتم تهجيرهم إلى " الأرض الموعودة " [٩].

٣ - إن بني إسرائيل هم بنو يعقوب (الذي لقب بإسرائيل) الاثنا

عشر. وهم جميعا عرب آراميون موحدون، وان تسمية بني إسرائيل ليس لها أي مضمون ديني في التاريخ العربي القديم، بل هي تسمية نسبية؛ كان يقصد بها أبناء يعقوب؛ وهم الأسباط الاثنا عشر، وهم الذين أثنى عليهم القرآن كموحدين، وميز بينهم وبين اليهود الذين اعتنقوا اليهودية بعد ظهورها في القرن الثالث قبل الميلاد على أيدي مجموعة من الكهنة، واعتبرهم أشد عداوة للمؤمنين (١٠).

٤ - أن مدينة القدس الحالية لاعلاقة لها بأورشليم التوراتية، التي توجد في شبه الجزيرة العربية. فالوصف الجغرافي التوراتي لمدينة أورشليم لا يتطابق مع جغرافية مدينة القدس، وسنقتصرما توصل إليه د. داود بشأن مدينة القدس على الدراسة اللغوية؛ حيث يقول: أن أول نص ذكر فيه " اسم أورشليم " هو النص السبعيني للتوراة، الذي وضع لأول مرة باليونانية في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. والاسم مؤلف من كلمتين " حورا " وتعني المغارة، و " شليم " وتعني المعزولين؛ المنعزلين؛ المتوحدين؛ المتعبدين، وهي جمع " شيلو ". أما " حورا " فهي في القاموس الكلداني: كهف؛ مغارة؛ حفرة عميقة؛ ثقب؛ نقب؛ ومنها " حرا " أو " حراء " وهو الغار، أو الكهف العميق، ومنه كانت تسمية " غار حراء " لتميزه.

أما " أورى شليم "، فعند نقل التوراة من السبعينية اليونانية إلى السريانية، انتقل الاسم كما هو دون إرجاعه إلى أصله العربي، وصار يكتب " أورشليم "، و " شيلوه " في التوراة هي المغارة التي كانت محلة؛ يجتمع فيها بنو إسرائيل لمناسباتهم المقدسة زمن " القضاة ". وقد نقلت

الكلمة من اليونانية إلى باقي اللغات دون ترجمة. وبذلك فان أورشليم التوراتية تعني كهف المتعبدين[١١].

ويرى د. أحمد داود أن التاريخ العربي؛ تعرض للكثير من التشويه والتزوير، بل والمسخ، حيث عمدت الدول الاستعمارية إلى إحداث مؤسسات استشراقية، كان هدفها منذ البداية خلق الظروف والذرائع من أجل تمرير المخططات الاستعمارية، وتبرير الوجود الاستعماري في المنطقة. ومن الفارقات المؤلمة أن على العربي إن يذهب إلى جامعات ومعاهد تلك الدول، التي عممت ورسحت التزوير، فيجري تلقينه تلك الصورة الشوهاء المقزمة لتاريخ شعبه، ثم يتحول في وطنه إلى مجرد وسيط ينحصر دوره في نقل تلك الصورة، وترسيخها في اذهان الأجيال العربية المتعاقبة.

وضمن هذا المخطط وحده - يضيف د. داود -، ودون تدخل من أجهزة الدولة في البلدان العربية مجتمعة؛ أو كلا على حدة، أخذت تتم عملية اعداد ودفع الكوادر، التي من شأنها أن تمسك بمقاليد أمور الثقافة والآثار، بحيث لا تخرج عن الخط المرسوم. أن بلدا عربيا واحدا لم يأخذ على عاتقه، حتى اليوم، إنشاء معاهد مركزية قومية حقيقية لتدريس اللغة العربية القديمة بكافة لهجاتها، وكتاباتها وبتسميتها الصحيحة، فيتولى خريجوها من بعد؛ الاضطلاع بهذه المهمة القومية العظمى... لقد بقيت هذه المهمة حتى اليوم منوطة بالأجانب وحدهم، بمن فيهم اليهود الصهاينة. أن دور مديريات الآثار لا يتعدى في معظمه تسلم بعض ما يجود به الدارسون الأجانب؛ لنوزعها دونما أي بحث، أو مناقشة أو

دراية؛ على معاهد التعليم ومؤسسات الإعلام والثقافة والسياحة، وكثيرا ما يستبق القائمون على الآثار نتائج الاستكشاف، ليقرروا نتائج، وأحكاما ومقولات، هي في صميمها صهيونية، أو مغرضة [١٢].

وتذكر مؤسسة الابحاث العربية التي نشرت الترجة العربية لكتاب د. الصليبي " التوراة جاءت من جزيرة العرب "؛ أن المؤلف ناقش مضمون كتابه مع عدد من المختصين العرب في عدد من المؤسسات العلمية العربية؛ قبل أن يضعه بصيغته النهائية. وبعد انجاز الكتاب باللغة الانجليزية، عرضه المؤلف على عدد من دور النشر الأجنبية، فرفضت أكثرها نشره بشكل فظ، وأهمل البعض الآخر الإجابة على عرض المؤلف للنشر. أما مؤسسة " دير شبيغل " الألمانية؛ فأنها بادرت إلى طلب حقوق النشر من المؤلف، واشترطت عرض الكتاب على مجموعة من العلماء، واساتذة التاريخ؛ لتقويمه من الناحية العلمية قبل اقرار نشره، وأن تتولى اصداره وتوزيعه على بلدان العالم اذا كان التقويم ايجابيا. وبعد موافقة المؤلف؛ جاءت توصية علماء اللغات السامية إيجابية؛ في حين وقف علماء التوراة موقفًا عدائيًا [١٣]. وسنأتي الآن على ردود الفعل على اطروحة د. الصليبي بشيء من التفصيل.

ردود الفعل:

يقول د. الصليبي في مقدمة كتابه المشار اليه: أن كتابه يبحث في الجغرافيا التاريخية للتوراة؛ وليس في أي أمر آخر؛ بما فيه قضية الصهيونية. والغرض منه توضيح غوامض التاريخ التوراتي عن طريق إعادة النظر في خريطة التوراة. ويضيف: قد يستنتج القارى من الكتاب

أن يهود العالم اليوم لا حقوق تاريخية لهم في أرض فلسطين؛ لأن الحقوق التاريخية للشعوب تزول بزوالها. والجماعات اليهودية الموجودة في العالم اليوم؛ لا يشكلون استمرارًا تاريخيًا لبني إسرائيل حتى يكون لهم شيء يسمى حقوق بني إسرائيل، وذلك سواء أكانت أرض بني إسرائيل في فلسطين أو غير فلسطين. ويرى المؤلف ضرورة هذا التوضيح وان كان بديها، وذلك حتى لا يساء فهم القصد من مقولة هذا الكتاب، وهو قصد علمي بحت لا يمت إلى واقع العصر الحاضر بصلة؛ إلا بقدر ما في المقولة بطبيعة حالها من دحض للمفهوم الصهيوني المغلوط للتوراة [١٤]. وهو مفهوم تتبناه الجماعات اليهودية في العالم حتى العلمانية منها. ومن المعروف أن مؤسسي الصهيونية الأو ائل كانوا علمانيين؛ الا انهم أدركوا أن لا سبيل إلى تحقيق مشروعهم بتجميع الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم، التي تشكل مادة المشروع الصهيوني، إلا بالاتكاء على الدين.

قبل خروج كتاب الصليبي المشار اليه؛ بدأت حملة اعلامية واسعة ضد الكتاب ومؤلفه في أجهزة الاعلام والدوائر الاكاديمية الغربية والصهيونية في فلسطين المحتلة وخارجها على حد سواء. والمستغرب وقوف بعض الأوساط العربية موقفًا سلبيًا من الكتاب حتى قبل الاطلاع على مضمونه. وكانت نتيجة ذلك أن مؤسسة " دير شبيغل " الألمانية، التي، وافقت على نشر الكتاب؛ كانت قد تعاقدت مع عدد كبير من مؤسسات النشر الأجنبية ليصدر الكتاب باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والدانمركية؛ اضافة إلى اللغة العربية، على أن

تدرسه قبل التعاقد. الا أن شدة الحملة على الكتاب اجبرت مؤسسة نشر عالمية عن التراجع عن عقدها مع " دير شبيغل ".

هنا يبرز سؤال تلقائي مفاده ما هو سبب هذه الحملة عل الكتاب؟. وتجيب الجهة الناشرة للكتاب باللغة العربية " أن المؤلف يطرح نظرية جديدة تقوم على وجوب اعادة النظر في " الجغرافيا التاريخية للتوراة "؛ حيث يثبت أن أحداث " العهد القديم " (التوراة)؛ لم تكن ساحتها فلسطين؛ بل وقعت في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية؛ مستندا في ذلك إلى أدلة اكتشفها في ميداني اللغة والاثار، ومقارنتها بالمألوف والسائد من " الجغرافية التاريخية للتوراة " [١٥].

ويذكر د. الصليبي في حوار مع د. زياد منى؛ انه كان ثمة نوع من العنصرية في ردة الفعل على عمله من قبل علماء التوراة في الغرب، وكأن لسان حالهم يقول: نحن العرب ليس لنا دخل في ذلك الامر، ونحن نتطفل على شيء يخصهم... فثمة شخص يدعى لورتس - كان يعمل في جامعة منستر الألمانية الغربية؛ عندما كانت دار النشر الألمانية تبحث فيما اذا كانت تستطيع نشر الكتاب - قال ما دخل هذا الشخص العربي بالموضوع، فليذهب ويهتم بالجمال.

والحقيقة أن ثمة دلائل تشير إلى أن اطروحة د. الصليبي تمتلك أساسا علميًا ومنطقيًا، وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور عفيف بهنسي، الذي شغل منصب المدير العام للاثار في سوريا " أن جميع الجهود الاثرية المبذولة في بلاد الشام؛ لم تقدم دليلا تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية " [١٦]

ويقول الباحث الفرنسي الشهير بيير روسي حول النقطة نفسها: " أن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق، فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير؛ تكشف آثرا قليلا للعبرانيين، فعلى آلاف النصوص المسمارية، أو المصرية، التي تؤلف المكتبة المصرية' أو مكتبة رأس شمرة أو نينوى... في ذلك كله لا تذكر كلمة " عبرية "، وأشهر ملوك التوراة؛ وهما داود وسليمان؛ لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية. وليس هناك أبدا ذكر للملحمة والوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين، وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٩٠ - ١٩٢٥. فالعدم كامل مثلما هو قطعي جازم... لقد نشر في عام ١٩٧٣ برعاية السلطات الإسرائيلية طبعة من كتاب فلافيوس يوسف، ولقد زينه المؤلف برسوم منسوخة؛ بابلية وسومرية ومصرية وحثية، أي عربية، إننا لا نجد فيها " عبرية " ولا حتى في النص الذي، كما هو معروف، ترجمة إغريقية " (١٧).

هذا يؤكد ما يطرحه د. الصليبي. أن البحث عن تاريخ بني إسرائيل واليهود يتم في المكان الخطأ.

سنذكر وجهتي نظر حول أطروحة د. الصليبي؛ الأولى عربية والأخرى أجنبية. في عرضه لكتاب " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، المنشور في فصلية " دراسات تاريخية " الصادرة عن جامعة دمشق؛ عدد خريف وشتاء ١٩٨٧؛ قال د. محمود أبو طالب الأستاذ في الجامعة

الأردنيـة: " لا مجـال بـالطبع لقبـول مطابقاتـه (مطابقـات د. الصـليبي) اللغوية المتعلقة برساتل تل العمارنة، ونصوص سرجون الآشوري إذ لم يثبت لنا بعد أن أرض التوراة هي عسير، أما مناقشاته للكتابات، التي وجدت في فلسطين فيمكن اعتبارها مثلا لما يجب أن لا تكون عليه المناقشة العلمية " [١٨].

وجهة النظر الثانية نشرتها الفصلية المشار إليها مترجة عن مجلة " دير شبيغل " الألمانية، ونشرت اسم المترجم، لكنها أسقطت اسم الكاتب، ومما جاء في هذه المقالة: "... فلماذا لا نحاول توجيه الاقطار إلى عسير، لاسيما وقد تعذر حتى الآن إيجاد الدليل المادي في فلسطين على الأحداث الثورانية، التي جرت من أيام ابراهيم حتى السبي البابلي... واذا نقلنا الشبكة البلدانية التوراتية من فلسطين، إلى عسير؛ نجد أن التوافق لا يقتصر على أسماء البدان و المواقع، بل ويشمل الطبيعة، وخصائص الأرض، والمعادن والمياه والنبات والحيوان كما ورد وصفها في التوراة " [١٩].

بعد ذلك يورد الكاتب العديد من الأدلة المادية المؤيدة لأطروحة الصليبي؛ منها أنه سبق للمستعرب والمؤرخ الهولندي رايهات دوزي أن جمع أدلة كثيرة على الماضي اليهودي للحجاز وعسير في كتابه الذي صدرقبل ١٧٣ عاما بعنوان " الإسرائيليون في مكة من أيام داود حتى القرن الخامس بعد الميلاد " ويستخلص من هذا الكتاب أن اليهود سكنوا الحجاز وعسير على الأقل منذ داود. كما عثر على معلومات مفادها أن دولة عربية قامت بين مكة واليمن بين ١١٥ق. م والقرن السادس

الميلادي، وكانت تدين باليهودية، وهي دولة حمير، التي مقرها اليمن. والمعروف أن أخر ملكين من ملوك حميركانا يدينان باليهودية، كما أن ثمة أدلة مادية على أنه لا يوجد إجماع لدى اليهود بأن فلسطين هي الوطن الأول لليهود. بالإضافة إلى أن اليهود الفلاشا الذين هاجرو من شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة في الألف الأول قبل الميلاد، ويعتبرون انفسهم يهودا؛ لم يعترف الحاخام الأكبر في القدس بيهوديتهم إلا عندما هربو من مجاعة إفريقيا إلى إسرائيل، ويشير الكاتب إلى أن التفاصيل في الحياة الإسلامية في الحجاز؛ تبدو وكأنها تشير إلى ماض يهودي، فأهالي الحجاز اليوم ينعتون أهالي عسير بكلمة (يهودنا). وثمة عدد من القبائل الحجازية ما تزال تعتقد حتى الآن أن أجدادهم في الأزمنة البعيدة كانو يهودًا. كما أنهم ما زالو على قناعة تامة بأن أرض الأنبياء التوراتيين موجودة في الحجاز. وفي الإحساء بالسعودية؛ ما زال البدو هناك يزورون كهوفا مغارات معينة على أساس أنها منازل إبراهيم الخليل (٢٠).

هذا إذًا بإيجاز ما كان من أمر أطروحة د. كمال الصليبي حول علاقة بني إسرائيل بفلسطين، وما أثارته من جدل، وما نجم عنها من تداعيات. ومما تقدم يمكن الوصول إلى النتائج والاستخلاصات التالية:

١ - أن المصادر التاريخية، التي تحدثت عن تاريخ فلسطين اقتصرت على الغرب المعروف بميوله، وأهوائه وأغراضه المعادية لنا.

٢ - أن الباحثين والمستكشفين الآثاريين قدموا إلى منطقتنا، وهم مشبعين بالفكر التوراتي، لذلك فانهم كانوا يربطون أي استكشاف أثري

ببني إسرائيل واليهود.

٣ - أن تحلي بعض الباحثين الأركيولوجيين بالروح العلمية؛ أوصلهم إلى حالة من الشك في التاريخ المكتوب في التوراة؛ ما دفعهم إلى محاولة لتقصي تاريخ المنطقة بنوع من الموضوعية.

٤ - أن محاولة تقصي تاريخ المنطقة بعيدا عما يدعى في الغرب " الدراسات الكتابية ". أي التاريخ المكتوب في " الكتاب المقدس "؛ أفرزت مجموعة من الباحثين، الذين رأو أن تاريخ فلسطين قد طمس لصالح تاريخ إسرائيل؛ أي أنه من أجل تبرير قيام إسرائيل الحالية، تم خلق علاقة بين إسرائيل القديمة والجماعات اليهودية المنتشرة في العالم، حاليًا، وبالمقابل تم طمس التاريخ الفلسطيني.

٥ - أن الاهتمام بالكتاب المقدس، وأصول إسرائيل القديمة ويهودا؛ أدى - حسب تومس طمسن - إلى خضوع تاريخ فلسطين في الكتابات الغربية؛ حتى عصر ما قبل البرونز (٣٠٠٠ - ١٢٠٠ ق. م) للكتابة من زاوية بدايات العبريين، وكتمهيد لبني إسرائيل. " لكن التبلور الواضح للهوية القومية الفلسطينية؛ منذ عام ١٩٦٧ بشكل خاص، في اعقاب الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية وقطاع غزة، أدى إلى ظهور استقلالية أكبر في الكتابات التاريخية والأركيولوجية؛ عن الدراسات التوراتية ومسألة الأصول اليهودية " [٢١].

إن ازدياد حدة وكثافة السجال حول طبيعة تاريخ فلسطين القديم؛ حتى وصلت إلى درجة تمس الأصول، خاصة حول موضوعات الاستمرارية

الدينية والاثنية. وفي هذا السياق ألقيت ظلال من الشك العميق على إمكانية كتابة تاريخ لإسرائيل استنادًا إلى روايات التوراة، ووصل بعض المؤرخين ال حد التشكيك من حيث المبدأ؛ بإمكانية كتابة تاريخ من هذا النوع(٢٢).

٦ - في هذا السياق تأتي أطروحة د. كمال الصليبي، القائلة بأن مسرح الأحداث التوراتية؛ هو الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب. هذه الأطروحة التي يعززها عدم عثور الاسرائيليين - رغم الجهد المضني الذي بذلوه في التنقيب على الآثار في فلسطين - على أي أثر يدلل على وجود بني إسرائيل، أو اليهود.

٧ - إلا أن ذلك لا يعني بأي حال أن لليهود اليوم أي حق في شبه الجزيرة العربية، لانهم لا يمتون لبني إسرائيل أو اليهود الذين عاشو في المنطقة بأية صلة على الاطلاق، فيهود العالم أعراق مختلفة انتشرت الديانة اليهودية بينهم كما انتشرت باقي الديانات الاخرى في العالم.

٨ - أن الهجوم الغربي على الصليبي واطروحته، مرده العنصرية، فهم يعتقدون أن البحث الكتابي؛ يجب أن يقتصر على الغرب.

٩ - أما الهجوم العربي، فمرده الجهل بالتاريخ، واقحام السياسة في الموضوع.

أخيرا ثمة تحفظ على ما يطرح بشأن تاريخ فلسطين القديم، وعلاقته ببني إسرائيل، مفاده أن الطريقة التي يبحث فيها هذا التاريخ وكأن فلسطين جزيرة معزولة غير مرتبطة بمحيطها. ومن غير المنطقي توفر

امكانية لكتابة تاريخ فلسطين على هذا النحو. ولذلك من المهم التنبه إلى هذا الأمر.

* * *

obeikandl.com

مراجع المدخل الثاني

(١) د. زياد منى، **كمال الصليبي في حوار مع زياد منى عن مقولاته في نصوص التوراة والانجيل**، دار قدامس، دمشق، الطبعة الاولى، ٢٠٠١، ص ٧٥.

(٢) كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الاولى، ١٩٨٥، ص ٢٧.

(٣) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.

(٤) أسمهان شريح، القدس واورشليم بين الحقيقة والخيال، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٠٩، صيف ١٩٩٧، ص ٥٨٢، عن جواد على، **المفصل في تاريخ العرب والاسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، الجزء الثاني، ١٩٧٦، ص ٢٩١.

(٥) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧ - ٢٨.

(٦) د. محمود ابو طالب، هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ **دراسات تاريخية** (جامعة دمشق)، العددان ٢٨، ٢٨، ايلول / سبتمبر - كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٧، ص ١٣١.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ١٣٤.

(٨) د. أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص ٦٥.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٦٦.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٣٠.

(١١) **المصدر نفسه**، ص٢١٦ - ٢١٨.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٨ - ٩.

(١٣) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ١٣.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٧ - ٨.

(١٦) د. أحمد داود. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٢، عن د. عفيف بهنسي، انعكاسات على اكتشاف وثائق ابيلا، **الفكر العربي**، بيروت، العدد ٥٢ اب / اغسطس، ص٩٤.

(١٧) بيبر روسي، مدينة، **يزيس التاريخ الحقيقي للعرب**، ترجمة فريد جحا، وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الاولى ١٩٨٠، ص ١٩ - ٢٠.

(١٨) أبو طالب، **مصدر سبق ذكره**. ص ١٣٥.

(١٩)؟، هل التوراة على حق؟ المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يبدل اماكن المدن المقدسة، ترجمة قاسم طوير، **دراسات تاريخية**. **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٥ عن دير شبيغل

obeikandl.com

(بون)، ٤٠، ١٩٨٥/٩/٣٠.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٤٧ - ١٤٥.
(٢١) توماس طمسن، هل نستطيع كتابة تاريخ فلسطين القديم؟ **الكرمل** (رام الله) العدد ٦٩.
(٢٢) **المصدر نفسه**.

* * *

obeikandl.com